الانزياح الأسطوري ودلالاته في شعر عثمان لوصيف
The mythical deviation and its implications in Othman Lossif's poetry

الطاهر مزروع[*1]، عبد الكريم شبرو[2]

[1] جامعة حمة لخضر، الوادي، (الجزائر)، mezroua-tahar@unvi-eloued.dz

[2] جامعة حمة لخضر، الوادي، (الجزائر)، krayma71@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/10 تاريخ القبول: 2022/03/25 تاريخ النشر: 2022/06/07

ملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية قضية توظيف الانزياح الأسطوري ودلالاته في الخطاب الشّعري عند عثمان لوصيف، الّذي كان سباقا لخوض غمار التّجربة الشّعرية الحداثية؛ وهذا مع مطلع الثمانينات مبلورة في أول دواوينه " الكتابة بالنار"، الذي طبعه سنة 1982.

إن توظيف عثمان لوصيف للانزياح الأسطوري أعطى شعره بعدا جماليا ورمزيا مكتنزا بالدّلالات، وهذا ما يدفع للتّساؤل عن أهمّ الانزياحات الأسطورية التي استعملها في شعره؟ وما الّدلالات الناتجة عنها؟ وإلى أي مدى وفّق الشّاعر في التّعبير بها عن رؤاه؟

كلمات مفتاحية: *انزياح أسطوري، وحدات أسطورية، أنثروبولوجيا.*

Abstract:

This research paper deals with the issue of employing the mythical deviation and its implications in the poetic discourse of Othman Lossif who was a forerunner to engage in the modernist poetic experiment at the beginning of the eighties. It is represented in his first volume Alkitaba Binnar, published in 1982.

The employment of the mythical deviation by Othman Lossif gave his poetry an aesthetic and symbolic dimension full of implications. This leads to the question of the most important mythical deviations that he used in his poetry. What are their implications? To what extent did the poet succeed to express his views?

Keywords: *mythical deviation, mythical units, anthropology.*

[*] المؤلف المرسل: الطاهر مزروع، الإيميل : mezroua-tahar@unvi-eloued.dz

1. مقدمة:

إن سحر الأسطورة ما فتئ يلقى ظلاله على الشّعر العربي وبالأخص القصيدة الجزائرية، حيث نحا الشّاعر الجزائري المعاصر نحو الشّعراء العرب المعاصرين في توظيف الأسطورة، ليعبر عن آلامه وطموحاته ويصوّر واقعه، وشكلا جديدا يربط ماضيه بحاضره، حيث يجعل العناصر الأسطورية في قوالب شعرية على شكل انزياحات يشكلها عن طريق إجراء تعديلات وتحويرات عليها؛ لإعطاء النّص الشّعري طاقة هائلة تتوهج وتشع بالمعاني والدّلالات المتعددة، ويعيد إنتاج أسطورة جديدة تسقى جذورها من النّبع الإنساني الأصيل. وأمام الحضور المكثف للتّوظيف الأسطوري في القصيدة الجزائرية المعاصرة، التي أصبحت الأسطورة سمة بارزة لها، ووسما تعرف به، فصار الشّاعر الجزائري تواقا لإضفاء الغموض والرمزية على شعره، ويعتمد في كتابته.

استطاع الخطاب الشّعري الجزائري بداية فترة الثمانينات وما بعدها؛ أن يتخطى الإيديولوجية الاشتراكية التي سيطرت عليه، ليحقق تطورا ملحوظا على مستوى لغة الخطاب، وذلك بفك القيود وإطلاق العنان ليعبر الشاعر عن آلامه وآماله بكل حرية، وقد وجد في الأسطورة الملجأ الآمن والزاخر بكل ما يلائم خياله الحالم وماضيه المتأصل، ومن أبرز الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين وظفوا الأسطورة وجعلوها مادة خاما لأشعارهم الشاعر عثمان لوصيف المتميز بشاعريته المبدعة، "فتبدو قصائده صورا شعرية يتدفّق منها السخاء الروحي، وترينا الأبدي هنيهة، والهنيهة في الأبدي"[1]. وقد جاءت هذه الورقة البحثية للكشف عمّ مدى توظيف الشاعر عثمان لوصيف للأشكال الأسطورية المختلفة؟ وماهي أهمّ الانزياحات الأسطورية التي وظّفها؟ وما دلالاتها؟

2.المنهج الأسطوري:

إن الشعر المعاصر وما يعتريه من غموض نسيج تشابكت خيوطه، وتوظيف الشّاعر للأسطورة جعله أكثر رمزية وإيحاء، فمن الصعب على الناقد سبر أغواره واستلهام جمالياته إلا إذا اتبع المنهج الأسطوري لفك شفراته، حيث سهل كثيرا مهمة النقاد والباحثين، فما المقصود بالمنهج الأسطوري؟ وما هي أهم الخطوات الإجرائية المتبعة فيه في دراسة الخطاب الشعري؟

من أبرز الأسماء التي أثارت مسألة تواجد الأسطورة في الأدب، وجعلت منها مبحثا نقديا له خصوصيته ومنهجه الخاص في النقد الأدبي، نذكر "على سبيل التمثيل لا الحصر: في علم النفس: كارل يونغ (Jung)، وفي النقد الأدبي نورثروب فراي (N.Frye)، وبيار برونيل بيار(P.Brand)، وفي الأنثروبولوجيا: جيمس فريزر(James George Frazer)، وكلود ليفي تشراوس(Claude levi-strauss)، وغيرهم... فمنهم من درس الأدب أسطوريا وهم القادمون من الأنثروبولوجيا والعائدون إليها، ومنهم من درس الأسطورة أدبيا وهم رواد النقد الأسطوري الذين نقصدهم بالتناول"[2] ، حيث استطاع هؤلاء صياغة "منهج يرصد حياة واستعمالات الأسطورة في النصوص الأدبية، وقد أطلق على مجموع تلك الخطوات الإجرائية التي صنعها أولئك النقاد مصطلح المنهج الأسطوري" [3]

3. الخطوات الإجرائية للمنهج الأسطوري:

حاول الناقد الفرنسي بيار برونيل (Pierre Brunel) وضع وتحديد خطوات إجرائية لدراسة النص الأدبي والتي تقوم على خطوات ثلاث رئيسة، هي: "التجلي (Emergence) والمطاوعة (Flexibilité) والإشعاع (Irradiation)"[4] .

1.3. التجلي(الانبثاق)-L'émergence [5]

وتعني هذه الخطوة ظهور واكتشاف العنصر الأسطوري عبر وسائط وطرق تمظهره عبر إشارات نصية دالة عليه أو على إحدى سماته ويختلف "باختلاف الأجناس الأدبية، كما يختلف باختلاف الآداب القومية وخصائص لغاتها، إلا أنه أغلب ما يكون في الأدب العربي، من خلال العنوان أو اللازمة أو العبارة الاستهلالية، أو من خلال تقنيات بلاغية بيانية محددة (كالتشبيه بأنواع هو الاقتباس والتضمين والتناص... وغيرها)، وأحيانا يكون عبر تقنيات فنية جمالية، (كالبناء الفني الشبيه بالأسطورة أو الخلفية الأسطورية)".[6]

2.3. المطاوعة-(المرونة)(La Flexibilité)[7]

ويرتبط مفهوم المطاوعة "بمدى استجابة العنصر الأسطوري الموظف للتغييرات التي يفرضها عليه المبدع، أو هي مسافة وحجم الانزياح الّذي يصيب الأسطورة عند توظيفها أدبيا، بحيث يمنح دلالتها الرمزية مرونة، ويجعلها مرتبطة بالنص الأدبي الذي احتواها"[8]، وهذا يعرف الناقد التغيرات والتحورات التي طرأت على العنصر الأسطوري الموظف مع حفاظه على تركيبه

الأدنى الذي يميزه كنص مرجعي لا يمكن أن ينمحي رغم تمدده وتقلصه، فسماته الأساسية دالة عليه.

3.3. الإشعاع (L'irradiation)

وهو حضور يفرضه الانزياح الأسطوري ويعتبر دالا مهما لتحليل النّص، فطاقته الدلالية تنبثق من العنصر الأسطوري الموظف على شكل خلفية فنية ومرتكزا مرجعيا يعمد الشاعر على بثه داخل نصوصه؛ "إذ يمتلك كل نص أسطوري نقاط ارتكاز محورية يشع من خلالها على أي نص يظهر فيه" [9]، ويمكن أن يكون أي جزء من النص حاملا لهذا الإشعاع، كأن يكون في العنوان أو في جزء من أجزاء المتن الشعري. والأسطورة بمفهومها الشعاعي كيان مزدوج الحضور، فهي تشع من مكمنها التناصي لتحيل على نصوص خارجية تشكل مرجعها، وتشع في ذاكرة الكاتب التي وجودها الغامض والمشوب بالإبهام دورا إبداعيا وفنيا.

"فللإشعاع مصدران؛ الأول: عمل الكاتب الذي يتناص مع نص آخر؛ والثاني: ذاكرة الكاتب وخياله، وهذا الأخير له الدور الأساسي في العمل الإبداعي لما يضفيه من غموض وإبهام يجعل "الإشعاع يزداد كلما قل التجلي، وتتقلص دائرة ضوئه، ويخفت سطوعه كلما زاد التجلي" [10].

إن نقد الأعمال الأدبية يعتمد على محاورة النصوص الإبداعية بطريقة سلسة ليكشف عن مواطن الجمال فيها، ويفجر الطاقات الدلالية الكامنة فيها من خلال تتبع الخطوات الإجرائية التي يمليها المنهج المتبع حسب خصوصية النص الأدبي، والمنهج الأسطوري يحافظ على تماسك النصوص الأدبية أكثر من المتون الأسطورية المرجعية[11].

4. الانزياح الأسطوري:

"الانزياح مصطلح أوجده النقد الأسطوري للدلالة على أن الأسطورة الأصلية تخضع لتعديل يجريه الشاعر أو الأديب حتى يلائم بينها وبين موقفه ونظرته".[12]ومن خلا ل هذا التعريف، فالمبدع يحتاج أن يحوّر ويغيّر في الأسطورة حتى يتمكن من التّعبير عن مواقفه ويصوّر رؤاه بكل حرية محاولا ربط عمله بالماضي الإنساني حيث البدايات و النماذج الأصيلة البكر و التعبير عن وقعه وحاضره وطموحاته في تحقيق الأفضل محافظا على تماسك نصه الأدبي، فقد يخسر النّص دلالته نتيجة التّوظيف الأسطوري الخاطئ ، "فيفقد النّص معناه

لمصلحة الخلفية الأسطورية المستدعاة في متنه(...) حيث لا يكون لنص كهذا معنى بمنأى عن الأسطورة، إن حضرت حضر، وإن غابت فقد سنده الدّلالي."[13]

5. نماذج من الانزياح الأسطوري في شعر عثمان لوصيف:

إن التجربة الشعرية الحداثية [14]المبكرة للشاعر عثمان لوصيف تنم على سعة اطلاعه الكبيرة وتمكنه من ناصية اللغة، فصار شعره كريشة الفنان يرسم بها ويلوّن كيف يشاء لوحات فنية غاية في الجمال، وهذا ما يؤكده الناقد الجزائري الدكتور محمد سعدون "في كتابه مع الشاعر عثمان لوصيف "الذي يروي فيه يوميات عاشها معه طيلة سنوات عديدة، حيث كانا لا يفترقان أبدا، فيقول فيه: "أما عثمان لوصيف فقد درس الطم والرم في التراث، ودرس الأدب المعاصر بتوسع وفهم فكان متفوقا في فكره وأدبه وشعره(...) فكان متفتحا على الآداب المشرقية والآداب الأجنبية المعاصرة وملما بها إلماما كبيرا"[15]، واستطاع أن يبني نصوصا شعرية كان الحضور الأسطوري فيه واضحا وجليا وبأشكال تعددت فيها الأساطير والشخصيات الأسطورية، فوظف منها العربي والشرقي والغربي ، ونوّع في موضوعاتها: أساطير الخصب والنماء، وأساطير التحدي والخلود، وكانت مستويات التناص الأسطوري فيها متفاوتة اجترارا وامتصاصا ومحاورة ، واستخدم في ذلك انزياحات أسطورية في أساطير مختلفة ، والتي من أهمها:

1.5. أسطورة السندباد:

تبرز أسطورة السندباد في شعر عثمان لوصيف وذلك لتكرارها في أغلب دواوينه (أعراس الملح، براءة، لؤلؤة، قالت الوردة...)، وهي أكثر أساطير ألف ليلة وليلة تداولا في الشعر العربي المعاصر، والسندباد "هو ذلك المغامر الجواب المرتاد، الذي استمرت مغامراته على امتداد سبع رحلات مليئة بالأخطار والغرائب والعجائب التي كان يصادفها السندباد، وكان يعود من كل رحلة من هذه الرحلات منتصرا على كل ما صادفه من أخطار، ومحملا بالهدايا والكنوز، والخيرات الجديدة والحكايا المثيرة التي تخلب لب أصدقائه وأصحابه الذين كانوا ينتظرون عودته من كل رحلة، ليغدق عليهم الكنوز التي عاد بها، وليمتعهم بالحكايا المثيرة عن الأخطار والأعاجيب التي صادفها"[16].

حضور أسطورة السندباد في شعر عثمان لوصيف بشكل متكرر يجعل التطابق كبيرا بين الشخصيتين الشاعر والسندباد ، فالشاعر وجد في هذه الشخصية الأسطورية المتنفس الذي يستطيع به تصوير تجربته الشعرية ،لما لها من خصائص المرونة والمطاوعة التي اكتسبتها من تعدد مواهبها ومواقفها من مغامرة، وتحدي للصعاب والسفر المستمر دون كلل أو ملل، والتضحية وغيرها من الصفات ليصنع الشاعر منها سندبادا معاصرا، وينصب نفسه هذا السندباد (سندباد الأعالي أنا)[17]، ويُجري عثمان لوصيف على الأسطورة الأصلية تعديلات وتحويرات ليضمّن نصه الشعري انزياحات دلالية مختلفة تتناسب ورؤاه، ففي إحدى قصائده يقول:

"عاشقا كان ينادي
في أعاصير الرمادي
ويعاني من تباريح الحنان
خله يلبس موج البحر والريح قناع
ويمضي في مداها
إنه كالسندباد
يعشق البحر ويغويه الضياع"[18]

في هذا المقطع شبه "الشاعر نفسه سندبادا بحريا معاصرا يعيش في واقع متصلب متعب يشد قبضته على حريته الفردية"[19]، وليتخلص من هذا الواقع الذي يكاد يخنقه، ويتنفس هواء نقيا؛ غير الفضاء المكاني الذي تجري فيه أحداث رحلة السندباد، فبدل البر والبحر بالسماء، وغير الاتجاه الأفقي ذهابا وإيابا إلى الاتجاه العلوي صعودا ونزولا، ومن رحلة مادية (مركب، كنوز...) إلى رحلة ارتقاء معنوي (روحي). رحلة الشاعر هي رحلة سندبادية علوية تسافر فيها روح الشاعر حيث الأنوار الإلهية لتعود طاهرة نقية مكتنزة بالحكمة الإلهية؛ وهذا ما تستدعيه صوفية الشاعر، فرحلة السندباد في نسختها الأصلية تغيرت من سفلية أرضية إلى علوية سماوية؛ لكن الشاعر حافظ على أجواء الرحلة المليئة بالمغامرات وخوض المجاهيل واكتشاف الجديد والعودة بالكنوز وعن اختلفت الكنوز، فالسندباد البحري يعود بالأموال من ذهب وفضة والهدايا ليعطيها لأهله وأصدقائه الذين ينتظرونه بعد كل رحلة، أما الشاعر/السندباد المعاصر فيرتقى بنفسه إلى السماء ليخلصها من الدنس الدنيوي؛ بأن يلبسها

عباءته الصوفية، ويعود بها مكتنزة بالقوة والحكمة لتعينه على إنقاذ الإنسانية من تناقضات العصر التي أرهقتها، ويفكها من كل القيود التي أسرتها، وفي نفس هذا السياق ينقلنا الشاعر مرة أخرى عبر انزياح أسطوري تصنعه ثنائيات ضدية (المادي/المعنوي) و(المحسوس/الغيبي) فيقول:

"طاعن في السواد
في محيطات عينيك،
في الظلمات،
وفي التيه
أحفر في الموج أسطورة السندباد
حاضنا هذه الفحمة اللؤلؤة!!"[20]

في هذا المقطع جعل واقعه سواد..ظلمات، ومتاعبه وهمومه أمواج بحر ومحيطات، ورغم هذه الأهوال وهذا التيه لا تغيب عنه الحقيقة الراسخة التي يعرج بروحه للبحث عنها، حيث ملكوت السموات تظهر لؤلؤة براقة بعدما تطهرت من رماد الاحتراق ؛ إنها الحب الإله الذي يحضنه بين جوانحه، فهو الطاقة التي يستمد منها الشاعر /السندباد القوة ليواصل دعوته بعدما يعود للأرض.

إن هدف الرحلة التي يقوم بها السندباد البحري وهدف رحلة الشاعر في ظاهرهما متشابهان، لكن في حقيقتهما مختلفان، فالأول من أجل المتعة وجمع الأموال، أما الثاني فهو أسما وأجل فهو من أجل نيل محبة الله التي هي لؤلؤة لا يحويها إلا صدر المؤمن بالله وحده.

2.5. **أسطورة سيزيف:**

أسطورة سيزيف نالت قبولا كبيرا لدى الشعراء، وذلك من خلال التوظيف الواسع لها، استطاعوا من خلالها تصوير شدة القهر والمعاناة التي يعانيها الإنسان في عصرنا الحالي ، فهم يجدون في شخصية سيزيف العبثية واللاجدوى من تغير الواقع المسلط على الإنسان؛ سيزيف الذي استسلم واعتبر مصيره قدر لا يمكن الحياد عنه فرضي بالعذاب الأبدي الذي سلطته عليه الآلهة، فقد عوقب بأن "يرفع صخرة هائلة الحجم إلى قمة جبل عال شديد الانحدار فيستجمع الشقي ما فيه من قوة ليرفعها، ويتصبب العرق من جسمه كالمطر، فيمضي

بالصخرة نحو قمة الجبل وما يكاد يصل هدفه لينتهي إلى خلاص ما هو فيه من آلام، حتى تنقلب الصخرة من يده وتتدحرج نحو الأسفل محدثة جلبة شديدة ومغشاة بسحابة من الغبار. ومن جديد يعود سيزيف ليرفع الصخرة لكنه لن يبلغ هدفه أبدا ولن يدرك نهاية عذابه"[21].

وترمز أسطورة سيزيف إلى "مجانية العمل الإنساني وضياع الجهد"[22] دون فائدة ترجى منه؛ ولكن سيزيف عثمان لوصيف، ذلك المتمرد على واقعه، الذي يسعى جاهدا لتغييره دون يأس. فيقول عثمان لوصيف في إحدى قصائده من ديوان الكتابة بالنار واصفا إياه:

"ندحرج صخرنا من غير يأس

وسيزيف لنا خير مثال

حلبنا الخمر من نار تلظى

وخضنا البحر في دمع غزال

نغالب جوعنا من ألف ألف

ونحيا بالشهيق والسعال"[23]

في هذا المقطع يوظف الشاعر أسطورة سيزيف لكنه ينحرف عن الدلالة الرمزية للأسطورة، ويجعل من سيزيف رمزا للمتمرد الرافض لحياة العبودية والعذاب الأبدي، فسيزيف الشاعر من دعاة التحرر فهو سيظل يحاول ويكرر المحاولة دون يأس حتى يكسر القيود (ندحرج صخرنا من غير يأس)، فالشاعر يجسد حالة الشعب الجزائري وكل الشعوب التي ثارت ضد جلادها، ولم تيأس حتى نالت حريتها، وتخلصت من عياء صخرة سيزيف، لتذهب دون عودة، وتبقى أسطورة سيزيف الوصيفية تلهمنا روح التحدي وعدم الاستسلام، فها هي الجزائر الحبيبة وشعبها الأبي ما زال يواصل السير على درب آبائه فرغم ما تعرضت له الجزائر من نكبات وأزمات خاصة في العشرية السوداء، لم يستسلم الشعب الجزائري غالب الجوع والمرض وصبر على فقد الأحبة ولم يضعفه الشعور بالخوف من مستقبل مجهول . إلى أن رست سفينته بر الأمان.

إن الشاعر استطاع تطويع الأسطورة وتحميلها دلالات مغايرة لأصلها فها هو سيزيف المستسلم يتحول إلى المتمرد والذي يتحدى وضعه، ليصير رمزا باعثا للتفاؤل والأمل، مما يجعل

إنسان هذا العصر يرفع التحدي من أجل تغير واقعه الرديء، فالشاعر أحدث انزياحا في الأسطورة الأصل دون أن يخل بها عبر به عن رؤية سيزيفية جديدة.

3.5. **أسطورة بروميثيوس:**

بروميثيوس "الذي عاقبته الآلهة بأن ربطته إلى جبل لتأكل النسور من كبده نهارا لتعود إلى الالتئام ليلا وهكذا"[24] يبقى في العذاب لأنه سرق النار وأعطاها للبشر. إن الرمز البروميثيوسي الذي يرمز للتضحية وتحمل العذاب من أجل الغير، استهوى الكثير من الشعراء وصارت له دلالات متعددة تختلف من شاعر إلى شاعر ومن قصيدة إلى أخرى، وأبرز هذ الدلالات: المقاومة، الإصرار، التحدي والتضحية.

ففي قصيدة "أنشودة النار" من ديوان براءة يقول فيه عثمان لوصيف:

"أي لغز تمخضى عنك
وأعطاك هذا الجلال الرهيب؟
وكيف قطعت الفجاج وجبت المهالك
حتى اهتديت إليّ
وشيدت معبدك اللازوردي بين ضلوعي؟
أنت صفاء السماوات
آ.. دعيني اطهر فيك فؤادي
من السم والسقم والظلمات،
دعيني أعبّ الرحيق الإلهي
من نورك الأزرق المتوهج،
ثم امنحيني جناحيك
وأهفو على شرفات الشفق"[25]

في هذه القصيدة التي يتناص عنوانها مع أسطورة بروميثيوس، حيث وردت كلمة "النار" مضافة إلى كلمة "أنشودة"، لتكون قصيدته شكلا ومضمونا نار بروميثيوسية تضيئ للبشرية عالمها المخيف المليء بالعتمات، فكلماتها تخرج من بين ضلوع الشاعر نارا ملتهبة تحرقه فيتحمل لظها في سبيل الإنسانية المعذبة لتصطلح أحوالهم ،وهذا بعدما تطهره النار وتذهب خبثه

فيعرج في الملكوت البعيد، حيث منبع الأنوار الإلهية، فبروميثيوس تحمل العذاب في سبيل نفع الناس بالنار ، التي أضاءوا بها الكهوف وصنعوا بها أدوات حربهم وسلمهم، والشاعر بروميثيوس عصره تحمل مشقة تطهير النفس في رحلة علوية(آ..دعيني أطهر فيك فؤادي)، ليعود للناس بالنور الإلهي الذي يضيئ لهم درب النجاة، ويخلصهم من مصير الهلاك(من السم والسقم والظلمات).

لقد استطاع الشاعر عثمان لوصيف توظيف أسطورة بروميثيوس دون المساس بشكلها الأصلي وذلك بإجراء تعديل عليها غير مخل، حيث أخذ رمزية النار في الأسطورة، وبث دلالاتها في القصيدة لتصبح مصدرا للنور والخير على البشرية وعذابا اختياريا للشاعر، فكل من الشاعر وبروميثيوس رمزا للتضحية من أجل الغير.

وفي "ديوان قالت الوردة" يتقمص الشاعر شخصية بروميثيوس ليصبح هو بروميثيوس المعاصر؛ وذلك في قوله:

"أسند النار للنار

والجرح للجرح

وأرفع بالدم والنار

معراج كل البشر"[26]

في هذا المقطع لم يذكر الشاعر شخصية "بروميثيوس" بشكل مباشر ولكن أجواء الأسطر الشعرية تأخذ المتلقي لتصور أن الشاعر هو نفسه بروميثيوس، "يقول: لا.. ويتلقى بعنفوان جمال الصاعقة"[27]يعرج السماوات ويتحمل الآلام والمشاق من أجل تخليص البشر، وتزويدهم بالحكمة عند العودة من رحلاته العلوية، فشاعر يضحي من أجل نفع البشرية مثل بروميثيوس الذي سرق النار وأعطاها للبشر لينتفعوا بها وتحمل من أجل ذلك العقوبة.

4.5. أسطورة طائر العنقاء:

لقيت أسطورة العنقاء اهتماما كبيرا في التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة، حيث تعتبر أحد رموز البعث والميلاد، فالعنقاء طائر "كلما أدركه الهرم يحرق نفسه ثم يبعث من رماده فتيا قويا فهو رمز التجديد والانبعاث، فاللهب والاحتراق وغيرها ذات دلالة انبعاثية خاصة مستمدة من الفينيق*"[28]، ولقد استلهم عثمان لوصيف من روح هذه

الأسطورة، ليصف حال وطنه الذي لا يريد أن ينهزم أو ينكسر، رغم كل الأزمات التي مرت عليه فيقول في مقطع من قصيدته "سيمفونية البعث والحضور في خريطة الوطن المفقود:

"ففي أوج مأساتي يشرق كوكبي

وتخفق راياتي وتحبو طفولتي

وفي بئر آفاتي ستلتم أضلعي

وتسطع آياتي وتكتمل صورتي

وماذا؟ أ يطويني الرماد وفي الثرى

جذوري وأنساغي ولم تخب جمرتي؟

وهل إن جليد الدهر فوق حدائقي

تراكم أطباقا أودّع بذرتي؟

يموت لهيب النار لكن جمرها

سيمتدّ أمواجا إذا الريح هبّت

وتنمو بذور الزهر بعد ذبولها

إذا ما ضروع الغيم درّت فسحّت"[29]

إن الشاعر اختار أسطورة العنقاء ليجسد فكرة الانبعاث وتحدي الموت من خلال بث قرائن تدل عليها وتشع في متن قصيدته (يطويني الرماد، لم تخب جمرتي، يموت لهب النار، وتنمو بذور الزهر بعد ذبوله...)، ولقد ربط الشاعر أسطورة العنقاء بالوطن وبنفسه فهو فرد من هذا الوطن بتوظيفه ضمير المفرد المتكلم في كثير من ألفاظ القصيدة(مأساتي، كوكبي، راياتي، طفولتي، يطويني، جمرتي، بذرتي...)، فالوطن والشاعر كلاهما عنقاء؛ الوطن بعد كل أزمة يعود من جديد شامخا مزدهرا، والشاعر رغم معاناته وألمه في هذا الوطن المنكوب، سينبعث مثل العنقاء من جديد ليطهر وطنه من كل الفساد وعيد له ازدهاره ومجده المفقود.

يوظف عثمان لوصيف في هذا المقطع علاقة الفرد بوطنه من خلال انزياح أسطوري دمج فيه الجزء في الكل وأظهر به علاقة التكامل بين الفرد والوطن، فلا سعادة لفرد إلا في وطن سعيد، ولا وطن قوي إلا بأفراد أقوياء متحدين، وهو ما يفصح عن معناه في آخر بيتين من قصيدة هذه بقوله:

"فلا حد بين الجزء والجزء إنما

توحدت الأجزاء عندي بضمة

فعظمي على عظمي تصلب عوده

بذلك تمت معجزات خريطتي"[30]

وبهذا الانزياح يكون الشاعر قد نجح في رسم صورة تكاملية لا غنى عنها، تحفظ الوطن من الدمار والانهيار، وتضمن للفرد العيشة الهنيئة فيه.

6. **الخاتمة:**

وخلاصة القول يمكن إجمال أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط الآتية:

- استطاع الشاعر عثمان لوصيف بتجربته الشعرية أن يتخطى حدود المستحيل؛ بتوظيفه الأسطورة في خطابه الشعري، ويجعل من الأسطورة قناة اتصال بالآخر عبر تجربة إنسانية أصيلة ومتأصلة ذات طابع شمولي تجتاز الزمن، ويصنع منها أسطورته الأدبية المعاصرة.

- وظّف عثمان لوصيف في خطابه الشعري مختلف أنواع الأساطير، وهذا ما يدل على موسوعية الشاعر واطلاعه الكبير على جميع الآداب العالمية والاستفادة منها لإثراء نصوصه الشعرية.

- تعديل وتحوير العناصر الأسطورية من خلال الانزياحات الأسطورية الموظفة في الخطاب الشعري عند عثمان لوصيف أكسب خطابه الشعري تعدد في الدلالات وتعبر عن مختلف رؤى الشاعر المعاصر.

- الشاعر عثمان لوصيف مثال للشاعر الجزائري المعاصر الذي وعى توظيف الأسطورة ليحقق ما يسعى إليه، وهذا ما لمسناه في انزياحاته الأسطورية المكتنزة بالمعاني والأفكار التي ملأت دواوينه.

- على المبدعين الذين يخوضون في الحقل الأدبي من كتاب وشعراء الاهتمام بالموروث الإنساني وجعل الأساطير مادة خام لأعمالهم الأدبية، لما فيها من كثافة دلالية وصور جمالية متنوعة، تزيد من جودة إنتاجهم الأدبي وتفتح لهم آفاقا جديدة في عملية الإبداع.

- الإحالات والهوامش:

1 عثمان لوصيف، براءة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1،1997، ص4.

2 محمد الأمين بحري، الأسطوري، التأسيس والتجنيس والنقد، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 1439هـ-2018م، ص268.

3 المرجع نفسه، ص268.

4 عبد الحليم مخالفة، تجليات الأسطورة في أشعار نزار قباني، منشورات السائحي، الجزائر، ط1434،1-2012، ص61.

5 محمد الأمين بحري، المرجع السابق، ص269.

6 عبد الحليم مخالفة، المرجع السابق، ص61

7 محمد الأمين بحري، المرجع السابق، ص275.

8 عبد الحليم مخالفة، المرجع السابق، ص62.

9 محمد الأمين بحري، المرجع السابق، ص278.

10 محمد الأمين بحري، المرجع نفسه، ص279.

11 المرجع نفسه، ص279.

12 حنا عبود، النظرية الأدبية والنقد الأسطوري، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د،ط)، 1999،ص152.

13 المرجع السابق، ص279.

14 محمد سعدون، مع الشاعر عثمان لوصيف أيام وأصداء، دار خيال للنشر والترجمة برج بوعريريج، الجزائر، ط1، 2021، ص11.

16 علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، دط،1997، ص158.

17 عثمان لوصيف، قالت الوردة، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2002، ص14.

18 عثمان لوصيف، أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1،1988، ص27.

19 جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، ط1،2003، ص213.

20 عثمان لوصيف، لؤلؤة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1997، ص6.

21 حاتم عماد، أساطير اليونان، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1429هـ-2008م، ص192.

22 كمالي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د،ط) ،2004، ص8.

23 عثمان لوصيف، الكتابة بالنار، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1982، ص19،20.

24 حنا عبود، النظري الأدبية والنقد الأسطوري، (د،ط)، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص156.

25 عثمان لوصيف، براءة، المرجع السابق، ص71،72.

26 عثمان لوصيف، قالت الوردة، المرجع السابق، ص14.

27 محمد سعدون، المرجع السابق، ص130.

* طائر أسطوري اسمه الإغريقي Phonix ويعني " الأحمر" أو الملتهب أو المشرق، (ينظر، محمد الصالح البوعمراني ،أثر الصورة في لغة أدونيس الشعرية (بحث في الدلالة) ، دار نهر صفاقس، تونس،2006، ص65.

28 يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، دار الأدب، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص213.

29 عثمان لوصيف، أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1988، ص41،42.

30 المرجع نفسه، ص47،48.

8. قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

- عثمان لوصيف، أعراس الملح، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
- عثمان لوصيف، براءة، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،1997.
- عثمان لوصيف، قالت الوردة، ط1، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2002.
- عثمان لوصيف، الكتابة بالنار، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982.
- عثمان لوصيف، لؤلؤة، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997.

ثانيا: المراجع العربية الحديثة:

- جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، ط1، 2003.

- عبد الحليم مخالفة، تجليات الأسطورة في أشعار نزار قباني، منشورات السائحي، الجزائر، ط1، 1434-2012.

-حنا عبود، النظري الأدبية والنقد الأسطوري، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د،ط)، 1999.

- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، (د،ط)، 1997.

- عماد حاتم، أساطير اليونان، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1429هـ-2008م.

- كمالي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د، ط)، 2004.

- محمد الأمين بحري، الأسطوري، التأسيس والتجنيس والنقد، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 1439هـ-2018م.

- محمد سعدون، مع الشاعر عثمان لوصيف أيام وأصداء، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعريريج، الجزائر، ط1، 2021.

- محمد الصالح البوعمراني، أثر الصورة في لغة أدونيس الشعرية (بحث في الدلالة)، دار نهر صفاقس، تونس، ط1، 2006.

- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، دار الأدب، بيروت، لبنان، ط1، 1994.